



الاتجاه الإسلامي والخلقي في النقد العربي القديم

«نقد الشعراء»

للاتجاه الإسلامي الخلقي حضور كثيف في نقدنا العربي القديم، بل هو الاتجاه الأبرز، وقد درست من قبل مجموعة من وجوه هذا الاتجاه في بحوث نشرت على صفحات هذه المجلة^(١).

وها أنذا أعرض في هذا العدد وجهها آخر من وجوه هذا الاتجاه الإسلامي والخلقي تمثل في موقف طائفة من الشعراء أنفسهم، وفي بيان نظرهم إلى الشعر، وأثره، ووظيفته.



د. وليد قصاب

بين أيدينا طائفة غير يسيرة من آراء الشعراء النقدية التي عبرت عن موقف خلقي في التعامل مع الشعر، وعن تقدير لدور الكلمة ومسؤوليتها، وأنها نشاط جاد هادف، وهي تمثل وجهاً من وجوه التيار الخلقي الكثيرة في نقدنا العربي القديم، وقد طرحت هذه الآراء التي يتعامل معها هذا البحث عدداً كثيراً من المسائل يمكن تصنيفها إلى مائاتي:

وظيفة الشعر:

عبر كثير من الشعراء عن تصورهم لدور اجتماعي تربوي خلقي للشعر، يتمثل في الدعوة إلى محمود الصفات، ومكارم الأخلاق، وهنا يبدو الشاعر كالمصلح المربي، يعشق الحق والخير، ويدل عليهما.

صور أبو تمام الشعر راسماً طريق المكارم، مسموع الكلمة، نافذ الحكم. قال (٢):

ولولا سبيل سنه الشعر ما درى

بغاة العلا من أين تؤتى المكارم
ترى حكمة ما فيه وهو فكاكة

ويُقضى بما يقضي به وهو ظالم
وتحدث البحثري عن نظرة مماثلة إلى دور الشعر، وأن قوافيه تدل على المناقب:

تدارك شمل الشعر والشعر شارداش

وارد مرذول غريب الفرائب
فضم قوافيه إليه تيقنا

بأن قوافيه سلوك المناقب (٣)
وأما ابن الرومي فقد عبر عن هذا الدور بشكل أعمق، فرأى الشعر يحيي المجد والبأس، ويبيني النفوس، ويجعلها على الخير والرفعة. ولولاه لكانت أعظم نخرات، يقول (٤):

أرى الشعر يحيي المجد والبأ

س بالذي تبقي أرواح له عطرأت
وما المجد لولا الشعر إلا معاهد

وما الناس إلا أعظم نخرات
وتحدث أبو العلاء عن وظيفة خلقية نفسية للشعر، تتمثل في تشجيع الجبان، وتذكير الناسي، وعطف قلب الكاشح القالي، قال الكلاعي: «قال أبو العلاء: لا تجهلوا فضيلة الشعر؛ فإنه يذكر الناسي، ويعمل عزيمة الفاتك، ويعطف مودة الكاشح، ويشجع الجبان:

وإن أشعر بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته: صدقا
صدق أبو العلاء...» (٥).

ووضَّح الأعشى إمكانية استثمار طاقة الشعر - في الانسراب إلى النفس، والنفوذ إلى طواياها - في حملها على الخير، واستنزائها إلى الجود والكرم، كما ينزل رعد السحابة السَّيل، يقول (٦):

والشعر يستنزل الكريم كما

يُنزل رعد السحابة السَّيل
وتحدث شعراء عن وظيفة اجتماعية أخرى للشعر تتمثل في الدفاع عن القوم، والمحاماة عنهم. قال الفرزدق (٧):

أذود وأحمي عن ذمار مجاشع

كما ذاد عن حوضي أبيه المخبل
وقال في موضع آخر (٨):

أنا الشاعر الحامي حقيقة قومه

ومثلي كضئ الشرائذ الذي هو جارمُه
ودعا الفرزدق الحارث بن نهيك إلى أداء هذه الوظيفة بقوله (٩):

إلى الأصلح الحلاف إن كنت شاعرا

فذبَّ، فما هذا بحين لغوب
وأعلن هذبة بن خشرم قبيلة شعره، وأنه موظف في المحاماة عن العشيرة، وإذا ترفع عن سفيه قومه فلم يهجه، فلن يسكت عمن يهجو قومه، صوناً لهم، وذنباً عنهم، يقول (١٠):

سأهجو من هجاهم من سواهم

وأعرض منهم عمن هجاني

اجتناب الفحش والتزام العفة:

وعبرت أقوال نقدية لبعض الشعراء عن التزام العفة في القول، والابتعاد عن الفحش، وما من شأنه



أن يشين المروءة، ويخدش وجه الحياء. وقد مثل قمة هذا الالتزام الخلقي الشاعر العباسي محمود الوراق عندما قال: «قل من الشعر ما يبقى لك ذكره، ويزول عنك إثم»^(١١).

وصور هذا التوجه الخلقي نصيب بن رباح في ترفعه العفيف عن هجاء رجل من الحجاز قال فيه:

رأيت أبا الحجناء في الناس حائراً

ولون أبي الحجناء لون البهائم

تراه على ما لاحه من سواده

وإن كان مظلوماً له وجه ظالم

فقال له قائل: ألا تجيبه؟ فردّ نصيب: لا، لو كنت

هاجياً لأحد لأجبت، ولكن الله أوصلني

بهذا الشعر إلى خير، فجعلت على

نفسي ألا أقوله في شر، ما وصفني إلا

بالسواد، وقد صدق...»^(١٢).

كما عبر نصيب عن اجتناب

السفه، والحرص على ابتزاز قبيح

الكلام، والرغبة في التزام العفة في

قوله: «والله، إني ما قلت بيتاً تستحيي

الفتاة الجميلة من إنشاده في ستر

أيها...»^(١٣).

وقال هديبة بن خشرم مفتخراً بترك السفاسف

من القول^(١٤):

ولست الشاعر السفاسف فيهم

ولكن مِرَّةُ الحرب العوان

وأما الفرزدق فقد أخذ على نفسه ميثاقاً غليظاً

أن يجتنب قول السوء، وألا يخرج من فيه إلا الحق،

فقد اهتدى إلى السداد، وزالت غشاوة الباطل عن

عينيه، فاستدل على طريق الرشاد، طريق الإسلام

الذي يحول بينه وبين شعر السفه بأخاديد عميقة،

يقول^(١٥):

ألم ترني عاهدت ربي وإني

لبين رتاج قائم ومقام

على قسم لا أشتم الدهر مسلماً

ولا خارجاً من في سوء كلام

ألم ترني والشعر أصبح بيننا

دروء^(١٦) من الإسلام ذات حوام

بهن شفى الرحمن صدري وقد جلا

عشا بصري منهن ضوء ظلام

وأثر عن الأخطل النصراني ادعاءً الحرص على

الاستمساك بأهداب الفضيلة، فزعم أنه يترفع في

هجائه عن الفحش، وينتبد البذاءة، قال:

«ما هجوت أحدا قط بما تستحيي

العذراء أن تشده أباه»^(١٧)، وكان

هذا المنزع الخلقي من أسباب

تقديمه عند من قدمه كما يقول عمر

ابن شبة: «كان مما يقدم به الأخطل

أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف عن

الفحش»^(١٨)، ولعله يعني أن هجاء

الأخطل موجه، شديد الوقع، ولكنه

بعيد عن الفحش.

ومن قبيل هذا التوجه في اجتناب

الفحش، وركوب متن السفه في القول، ما يروى من

أن النابغة أخذ على قومه بني ذبيان تفحشهم في

الرد على عامر بن الطفيل بعد وقعة حسي. قال

ابن رشيق: «لما قدم النابغة بعد وقعة حسي سألت

بني ذبيان: ما قلتم لعامر بن الطفيل وما قال لكم؟

فأنشدوه، فقال:

فإن يك عامر قد قال جهلاً

فإن مطية الجهل السباب

فكن كأبيك أو كأبي براء

الخ....



وحسان بذلك يربط بين الشاعرية والصدق، خلافاً لمن ربط الشاعرية بالكذب والغلو عندما قال: «أعذب الشعر أكذب»، كما جعل حسان الشعر قطعة من لب قائله، وعندما يعرض الشاعر كلامه على الناس يعرض عقله، بما فيه من كياسة أو حمق، ومن حق أو باطل، ومن سمو أو هبوط.

وشرح عبدالقاهر الجرجاني مراد حسان بالصدق، فربطه بالعنصر الخلقى، فقال: « فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب فيه الفضل، وموعظة ترؤس جماع الهوى، وتبعث على التقوى،

وتبين موضع الحسن والقبح في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه...»^(٢٣).

ومدح نابغة بني شيبان الصدق، وربطه بالمثل الحق، وقابل بينه وبين غناء الكلام، فقال:

والشعر شتى يهيم الناطقون به

منه غناء ومنه صادق مَثَلُ^(٢٤)

وتمدح به في موضع آخر قائلاً:

وقال العدو والصدّيق كلاهما:

لنابغة البكري شعر مصدق^(٢٥)

وقال الأحوص مخاطباً عمر بن عبدالعزيز الذي لم يحفل بالشعراء الذين خبر ما خبر من سوء قولهم أو فعلهم، ولم ير لهم حقاً في مال المسلمين، بل كان كما قال جرير: «يقرب الفقراء، ويباعد الشعراء»:

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف

لمنطق حق أو لمنطق باطل

فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شقّ عليه، وقال: ما هجاني أحد حتى هجاني النابغة، جعلني القوم رئيساً، وجعلني النابغة سفيهاً جاهلاً، وتهكم بي...»^(١٩).

وفي إحساس من شاعر كالنابغة الشيباني بخطر

الكلمة ومسؤوليتها، وأنها قد تجمع بالشاعر، أو يغلبه سلطانها الشموس؛ يقيم عليها حسيباً حتى تستقيم على الجادة، وهذا الحسيب هو ذكر الله.

عن عيسى بن عمر قال: «كان نابغة بني شيبان ينشد الشعر فيكثر، حتى إذا فرغ قبض على لسانه فقال: لأسلطن عليك ما يسوؤك: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر...»^(٢٠).

وروي - في شبيه بهذا - أن أبا نواس

أنشد الجماز شعراً من أعابيته ومجونه كفر فيه، وقال للجماز: أين أنت من هذا الطراز؟ فقال الجماز -

مصوراً موقفاً دينياً خلقياً من الكلمة -: أنا لا أتعرض لمن أعضائي جنده، يحرك عليّ منها ساكنها، أو يسكن متحركاً، فأهلك...»^(٢١).

إيثار الصدق:

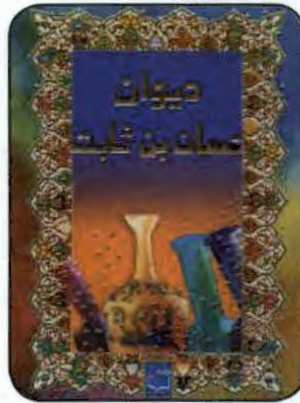
صدق الكلام مطابقتها الواقع والحقيقة، وبعده عن المبالغة التي تحجزه عن العقل، حتى تقيم بينه وبين المنطق برزخاً ضعيفاً. والصدق - لا شك - منزع من منازع النقد الخلقى. وقد عبر بعض الشعراء عن هذا المنزع، وكان معياراً من معاييرهم النقدية. قال حسان بن ثابت^(٢٢):

وإن أشعر بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته: صدقا

وإنما الشعر لب المرء يعرضه

على المجالس إن كئسا وإن حمّا





وبعداً عن المبالغة...»^(٢٨).

والتزم نصيب الصدق في مديحه إبراهيم بن هشام والي مكة، ولم يحمله الطمع في عطائه، والحرص على استرضائه، على الفلو والمبالغات، ومجاوزة المقدار، ويبدو أن الاقتصاد لم يعجب إبراهيم، إذ قال لنصيب: ما هذا بشيء، أين من هذا قول أبي دهب لصاحبنا ابن الأزرقي، حيث يقول:

إن تغد من منقلي نخلان مرتحلان

يرحل من اليمن المعروف والجود

ففضب نصيب،
ونزع عمامته،
وبرك عليها، ودافع
عن مبدئه الخلقي
دفاعاً منطقياً حاراً
قائلاً لإبراهيم: «
لئن تأتونا برجال
مثل ابن الأزرقي
نأتكم بمثل مديح
أبي دهب أو أحسن»،



ثم وضع نصيب قاعدة تستند إلى المعيار الخلقي الديني، وتذكرنا بما أثر عن زهير، وقُدِّم به، من أنه لا يمدح الرجال إلا بما يكون في الرجال. قال نصيب: «إن المديح إنما يكون على قدر الرجال...»^(٢٩).

وصدر عمرو بن معد يكرب عن رغبة في الصدق، وعبر عن توجه خلقي في الدعوة إلى التزام الحق في القول، فهو يرفض أن يقول في قومه ما ليس فيهم، أو أن ينسب إليهم ما لم يصنعوا، يقول:

فلو أن قومي أنطقني رماحهم

نطقت، ولكن الرماح أجرت

قال المرزوقي في شرح البيت: «فلو أن قومي أبلوا في الحرب، واجتهدوا لاقتخرت بهم، وذكرت

فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا

ولا ترجعنا كائنساء الأراميل

فإن لم يكن للشعر عندك موضع

وإن كان مثل الدر من قول قائل

وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه

سوى أنه يبني بناء المنازل

فإن لنا قربي ومحض مودة

وميراث آباء مشوا بالمناصل^(٣٠)

فهو يقول لعمر: إن الشعر كالخطبة، كلام منه الحق والباطل، ومنه الصدق والكذب، لا يقبل كله، ولا يرفض كله، بل هو مثلها يقبل منهما ما وافق الخير والصدق.

وعرف شاعر كعمران بن حطان بالتزام الصدق في شعره، واجتناب الكذب والنفرة منه، ولذلك قالت له امرأته يوماً: أما حلفت إنك لا تكذب في شعر؟ فقال لها: أو كان ذلك؟ قالت: نعم، قلت:

فهنالك مجزأة بن ثور

كان أشجع من أسامة

أفيكون رجل أشجع من أسد؟ ولكن عمران أحسن الرد، إذ بين لها أنه لم يخرج عن قاعدته في الصدق. قال: أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة، والأسد لا يفتح مدينة.^(٣١)

وأورد ابن رشيقي خبراً شبيهاً بهذا الخبر عن زهير بن أبي سلمى - أو أوس بن حجر - إذ قال له رجل منتقداً: «إني سمعتك تقول لهرم:

ولأنت أشجع من أسامة إذ

دعيت نزال ولج في الذعر

وأنت لا تكذب في شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد؟ قال: إني رأيته فتح مدينة وحده، وما رأيت أسداً فتحها قط.» وعلق ابن رشيقي على كلام زهير قائلاً: «فقد خرَّج لنفسه طريقاً إلى الصدق،

بعيد المعنى، لا وجه له، من ذلك قوله:

أنا ابن خندف والحامي حقيقتها

قد جعلوا في يدي الشمس والقمر

ومنها:

أخذنا بأطراف السماء عليكم

لنا قمراها والنجوم الطوالع

... إلخ.

فينبغي أن يكون جرير حين سئل عن شعره فقال:

كذاب، إنما عنى هذا من شعره

وأمثاله...»^(٢٤).

وتمدح نصيب بالصدق، ونسب

بعض الشعراء طبقته إليه، ونسب

آخرين إلى الكذب. قيل له^(٢٥): يا

أبا محجن! ألا تخبرنا عنك وعن

أصحابك؟ قال: بلى، جميل أصدقنا

شعرا، وكثير أبكانا على الظعن،

وابن أبي ربيعة أكذبا، وأنا أقول ما

أعرف...»^(٢٦).

الأنفة في المديح:

ومن ملامح التيار الخلقي في نقد الشعراء ما

عكسته طائفة منهم من ترفع عن المديح، ولا سيما

مديح التكسب، إذ عدوه - بحق - منقصة للمروءة،

يغتال شهامة الشاعر، ويذهب بماء وجهه. إنه متاجرة

بالكلمة، وارتزاق بها، وذلك من شر الكسب.

دعا عمران بن حطان - شاعر الخوارج -

الفرزدق - وقد شاهده مرة ينشد مديحاً، والناس

حواله مصطفون - أن يصون نفسه عن طلب ما

بأيدي الناس، وأن يسأل الله وحده، وألا يحمله الطمع

في عطاء الممدوح على تزييف القيم، فيكذب ويمين،

ويقول في الناس ما ليس فيهم:

بلاءهم، ولكن رماحهم أجرت لساني كما يجز لسان
الفصيل...»^(٢٧).

وعكس سلامة بن جندل مثل هذا الموقف الخلقي

الصادق مع النفس، الصادق مع الحقيقة، الذي لا

يزور الواقع أو يهجنه، إذ أجاب قومه عندما قالوا

له: «مجدنا بشعرك» قائلاً: «افعلوا حتى أقول...»^(٢٨)

داعياً بذلك إلى الصدق الخلقي والواقعي.

وفي لون آخر من أنوان الصدق مع النفس، والثبات

على المبدأ ما كان من أمر الفرزدق

مع يزيد. استدعى الخليفة يزيد بن

عبد الملك حين قتل يزيد بن المهلب:

طائفة من الشعراء منهم الفرزدق،

وكثير، والأحوص، وطلب إليهم هجاء

يزيد وأهل بيته، فأبت على الفرزدق

نفسه أن يهجو قوماً مدحهم بالأمس،

مسجلاً بذلك موقفاً خلقياً نبيلاً،

فهو لم يتزعزع أمام رغب السلطان

أو رهبه. قال للخليفة: «لقد امتدحت

بني المهلب بمدح ما امتدحت بمثله أحداً، وإنه لقبيح

بمثلي أن يكذب نفسه على رأس الكبر، فليعفني أمير

المؤمنين، فأعفاه...»^(٢٩).

وعلى ما عرف به الحطيئة من جشع، وإلحاف

في السؤال، وتكسب خسيس بالشعر، نزع - والوفاء

تحضره - منزعا خلقياً، فرثى لحال الشعر الجيد

يكذب فيه، فيقال فيمن لا يستحقه. قال من وصية

نقدية طويلة: «أجزع على المديح الجيد يمدح به من

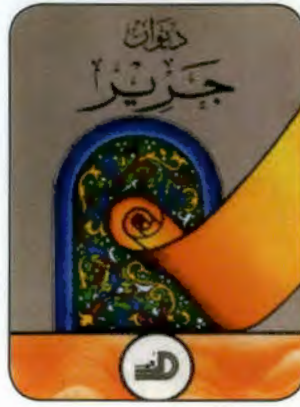
ليس أهلاً له...»^(٣٠).

وقد اتخذت طائفة من الشعراء هذا المعيار الخلقي

«معيار الصدق والكذب» في نقد بعضهم بعضاً.

كان جرير يقول عن الفرزدق: «كذاب» ورد في

الموشح: «قال عمر بن شبة: للفرزدق في شعره افتخار





أيها المادح العباد ليُعطى

إن لله ما بأيدي العباد

فاسأل الله ما طلبت إليهم

وارجُ فضل المقسّم العواد

لا تقل في الجواد ما ليس فيه

وتسمّ البخيل باسم الجواد^(٢٧)

وعقد ابن رشيق في العمدة باباً سماه «باب

التكسب بالشعر والأنفة منه» فذكر أن الترفع عن

السؤال كان هو الغالب على الشعراء

المتقدمين. قال: «وأما أكثر من تقدم

فالغالب على طباعهم الأنفة من

السؤال بالشعر، وقلة التعرض به لما

في أيدي الناس، إلا فيما لا يزري بقدر

ولا مروءة، كالفتلة النادرة، والمهمة

العظيمة...»^(٢٨)

وعبر شعراء كثيرون عن هذه

الأنفة، وبينوا ما في السؤال من

إسقاط للمروءة، وتهجين للكرامة،

قال عبيد بن الأبرص:

من يسأل الناس يحرموه

وسائل الله لا يخيب^(٢٩)

وقال آخر:

وإني امرؤ لا أسأل الناس مالهم

بشعري ولا تعيا عليّ المكاسب^(٣٠)

وعرف عدد من شعراء الإسلام الذين ترفعوا

عن المديح، وسمّوا بأنفسهم عن التكسب بالشعر، أو

اتخاذ الكلمة متّجراً، ومن هؤلاء مثلاً جميل بن معمر

العذري. روي عنه: «أنه ما مدح أحداً قط إلا ذويه

وقربائه»^(٣١)، وروي أنه صحب الوليد بن عبد الملك

في بعض سفره، والوليد على نجيب، فرجز به ابن

العذري فقال:

يا بكرُ هل تعلم من علاكا

خليفة الله على ذراكا

فقال الوليد لجميل: انزل فارجز، وظنه يمدحه.

فقال:

أنا جميل في السنام من معدّ

في الذروة العليا والركن الأشدّ

وأخذ في مدح نفسه وقومه، فقال اركب، لا حملك

الله^(٣٢).

وممن أنفوا من المديح كذلك عمر

ابن أبي ربيعة، والحارث بن خالد.

قال أبو الفرج: والحارث بن خالد

أحد شعراء قريش المعدودين الفزليين،

وكان يذهب مذهب عمر بن أبي

ربيعة، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا

الهجاء...»^(٣٣).

وقال سليمان بن عبد الملك يوماً

لعمر: «ما يمنعك من مدحنا؟ قال: إني لا

أمدح الرجال، إنما أمدح النساء»^(٣٤).

وتشبه من المحدثين بعمر بن أبي ربيعة العباس

ابن الأحنف، فإنه - كما يقول ابن رشيق - ممن

أنف عن المدح نظرفاً. وقال فيه مصعب الزبيري:

العباس عمر العراق. يريد أنه لأهل العراق كعمر بن

أبي ربيعة لأهل الحجاز، استرسالاً في الكلام، وأنفة

عن المدح والهجاء. واشتهر بذلك، فلم يكن يكلفه إياه

أحد من الملوك ولا الوزراء...»^(٣٥).

ومنهم يحيى بن نوفل الحميري، لم يمدح أحداً،

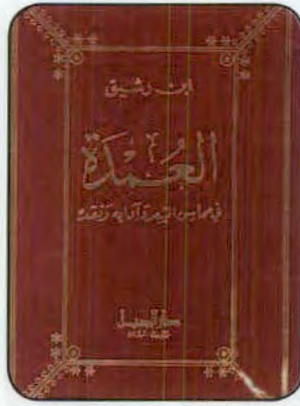
قال يذكر بلال بن أبي بردة:

فلو كنت متدحاً للنوال

فتى لا متدحت بلالا

ولكنني لست ممن يريد

بمدح الرجال الكرام السؤال^(٣٦)



مقيماً بشرق الأندلس، ولم يتعرض لاستماعة ملوك طوائفها، مع تهافتهم على أهل الأدب...»^(٥٠).

ومن عجب أن نجد الحطيئة - الذي كان سؤلة ملحافاً - يعكس موقفاً خلقياً، إذ أدرك أن وضاعة الغرض الشعري تحدر صاحبها عن منزلته الشعرية، وترفع فوقه من هو دونه، سأل ابن عباس مرة: من أشعر الناس؟ قال: أمن الماضين أم من الباقين؟ قال: من الماضين. قال: الذي يقول:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفزه، ومن لا يتق الشتم يشتم

وما بدونه الذي يقول:

ولست بمستبِق أخا لا تلمه

على شعث، أي الرجال المهذب؟

ثم قال عن النابغة: «ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولاً - يعني نفسه - واللّه - يا بن عم رسول الله - لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين...»^(٥١).

وهكذا وجدت طائفة من الشعراء في الجاهلية والإسلام، تأنف من المديح، والتكسب بالشعر، وتتخذ من ذلك موقفاً خلقياً، إذ ترى في ذلك انتقاصاً من قدر الشاعر، وتهويناً من شأن الكلمة، وتسخييراً للفن في أغراض غير نبيلة، وهو مزلة إلى الكذب والنفاق، وتزوير القيم، فكم حقير عظمه! وكم قزم نفجه وعملقه!

الترفع عن الهجاء:

وكما ترفعت طائفة من الشعراء عن المديح، ولاسيما مديح التكسب، وعدته - بالمعيار الخلقي - لئناً من ألوان المتاجرة بالكلمة، يزرى بمروءة

وعرف ذو الرمة بهذا الموقف الخلقي، فتجافى عن المديح. قال السيوطي: «كان ذو الرمة مليح الشعر، يشبه فيجيد ويحسن، ولم يكن هجاء ولا مداحاً...»^(٥٢).

وكان من هؤلاء كذلك علي بن الجهم. قال في المتوكل:

وما الشعر مما أستظل بظله

ولا زادني قدراً ولا حط من قدري

ولكن إحسان الخليفة جعفر

دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر

فذكر - كما يقول ابن رشيق - «أنه لا يستظل بظل الشعر، أي: لا يتكسب به، وأنه لم يزد قدره، لأنه كان نابه الذكر قبل عمل الشعر. ثم قال: «ولا

حط من قدري، فأحسن الاعتذار لنفسه وللشعر. يقول: ليس الشعر ضعة في نفسه، ولا صنعته فيمن دون الخليفة، وما كفاه ذلك حتى جعل نفسه بإزاء الخليفة، بل مكافئاً له بشعره على إحسان بدأه الخليفة به. ولم يرض أن يجعل نفسه راغباً ولا مجتدياً...»^(٥٣).

وخاطب شاعر عبدالله بن طاهر ابن الحسين فعمس هذه الأنفة قائلاً:

لساني وقلبي شاعران كلاهما

ولكن وجهي مُفحَم غير شاعر

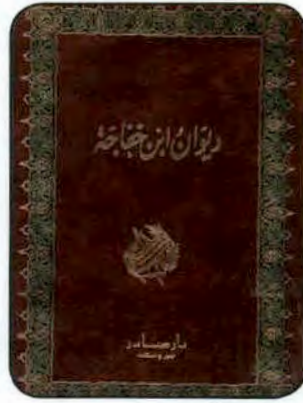
فلو كان وجهي شاعراً كسب الفنى

ولكن وجهي مثل وجه ابن طاهر

فتى يتقى أن يخذل اللوم عرضه

ولا يتقى حد السيوف البواتر»^(٥٤)

وعرف بهذه الأنفة ابن خضاجة الأندلسي، فقد ترفع عن مديح الملوك. قال ابن بسام عنه: «كان





وهو يعمده ظلماً إذا طال الآخرين بلا وجه حق، كأن يمنع الشاعر من عطاء أحد - كما كان حال بعض الشعراء - فيهجو مانعه، بل إن نصيباً يمضي في التعليل الخلفي إلى أبعد من ذلك، فيرى من يضع نفسه في موضع السؤال، ويعرضها للذل والمهانة، أحق بالهجاء.

وصرح عبدة بن الطبيب - الشاعر المخضرم - أن الهجاء ضعة، وأنه لا يليق بالمرءة ولا بالشرف، وهو لا يتركه عجزاً، ولكن يتركه ترفعاً وخلقاً. قال رجل لخالد بن صفوان: كان عبدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجو. فقال: لا تقل ذاك، فوالله ما أبى عن عي،

ولكنه كان يترفع عن الهجاء، ويراه ضعة، كما يرى تركه مرءة وشرفاً. قال:

وأجراً من رأيت بظهر غيب

على عيب الرجال أولوا العيوب^(٥٦)

كما عبر عن هذا المنزع الخلفي في النقرة من الهجاء العجّاج، وعده - مثل نصيب وعبدة - لونا من الظلم، وإن أخلاق الراشد الحليم لتحجزه عن ظلم الآخرين، مثلاً يحجزه الحفاظ على أحسابه عن تعريضها للذم والانتقاص. قال سليمان بن عبد الملك مرة للعجّاج: «إنك لا تحسن الهجاء». فقال: «إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نُظلم، وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم. وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم؟»^(٥٧)

كما نحا هذا المنحى الخلفي الشاعر الجاهلي صخر بن عمرو بن الشريد، أخو الخنساء، فأظهر نقرة من الهجاء، حتى إنه رفض أن يهجو هاشماً ودريداً ابني حرملة المريين من غطفان، وهما

الشاعر، ويسفح ماء كرامته، ويحمله على الكذب والنفاق، نفرت طائفة أخرى من الهجاء، وعدته غرضاً غير نبيل، إذ هو - عندما لا يكون لردع ظالم، أو فضح طاغية فاسق - ضرب من السب، ولون من ألوان البذاءة والشتم.

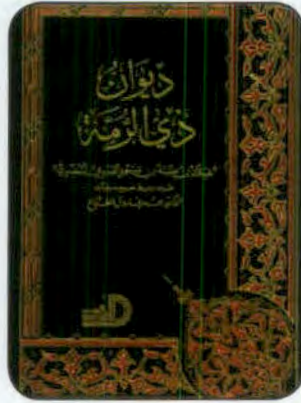
ورأينا أغلب الذين أنفوا من المديح أنفوا من الهجاء كذلك، كنصيب، وعمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد، وذي الرمة، وغيرهم، كالنمر ابن التولب. روى أبو عبيدة أنه كان شاعر الرباب في الجاهلية، ولم يمدح أحداً ولا هجأ...^(٥٨)

ومر معنا قبل قليل أن نصيباً لم يترفع عن المبادأة بالهجاء فحسب، بل

ترفع كذلك عن الرد على من هجاه، وسما بشعره أن يطرحه في غرض دنيء. قال لمن سأله أن يجيب: «لو كنت هاجياً لأحد لأجبتة، ولكن الله أوصلني بهذا الشعر إلى خير، فجعلت على نفسي ألا أقوله في شراً...»^(٥٩)

وقالوا له مرة: «إن الناس يزعمون أنك لا تحسن أن تهجو. فضحك ثم قال: أفتراهم يقولون: إني لا أحسن أن أمدح؟ فقليل: لا. فقال: أفما تراني أحسن أن أجعل مكان: عافاك الله، أخزأك الله؟ إني رأيت الناس رجلين: إما رجل لم أسأله شيئاً فلا ينبغي أن أهجوه فأظلمه، وإما رجل سألته فمتعني، فتفسي كانت أحق بالهجاء إذ سولت لي أن أسأله، وأن أطلب ما لديه...»^(٦٠)

وإذا لم يبدُ الهجاء مجرد قلب لصفات المديح، ووضع (أخزأك الله) في مكان (عافاك الله)، بل هو غرض متميز تسوق إليه عواطف وأحاسيس مختلفة عن عواطف المديح^(٦١)، فإن نصيباً كان على صواب



فقال: ولم أهجو؟ إن لنا أحساباً تمنعنا من أن نُظلم، وأحلاماً تمنعنا من أن نُظلم.

وسئل نصيب عن مثل ذلك فقال: إنما الناس أحد ثلاثة: رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه؟ ورجل سألته فأعطاني فالمدح أولى به من الهجاء، ورجل سألته فحرمني فأنا بالهجاء أولى منه. وعقب ابن رشيقي على هذا الكلام مستحسناً، فقال: «وهذا كلام عاقل منصف، لو أخذ به الشعراء أنفسهم لاستراحوا واستراح الناس...»^(٦٠).

ثم ذكر أن ممن ترفع عن الهجاء في زمانه أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم. قال ابن رشيقي عنه: «لم يهج أحداً قط. ومن أناشيدته في كتابه المشهور، لغيره من الشعراء

ولست بهاج في القرى أهل منزل

على زادهم أبكي وأبكي البواكيا

فإما كرام موسرون أتيتهم

فحسبي من ذو عندهم ما كفايا

وإما كرام موسرون عذرتهم

وإما لثاماً فادخرت حيائيا

وهذا مثل كلام نصيب المنثور الذي تقدم...»^(٦١).

وهكذا نفرت طائفة من الشعراء العرب في الجاهلية والإسلام من غرض الهجاء، وحاكمته إلى المعايير الخلقية، فرأت في هجاء البراء ومن لا وجه لذمهم، ضرباً من السفه، ولوناً من الظلم والافتراء على الخلق، وطرحاً للكلمة في مواطن الخنا،

وفتحاً لباب من أبواب المهاترة والشر، يسمو الشاعر النبيل عن الخوض فيه، ويربأ بالكلمة أن يحدرها في هذا الدرك.

اللذان قتلا أخاه معاوية، وآثر أن يصون لسانه عن الفحش، وأن يسمو بشعره عن المهاترة والسباب. قال قائل لصخر: «اهجهم. فقال: ما بيني وبينهم أقذع من الهجاء، ولو لم أمسك عن هجائهم إلا صوناً للساني عن الخنا لفعلت، ثم خاف أن يظن به عي، فقال:

وعاذلة هبت لبيل تلومني

ألا لا تلوميني كفى اللوم ما بيا

تقول: ألا تهجو فوارس هاشم

وما لي إذ أهجوهم ثم ما ليا

أبى الشتم أني قد أصابوا كريمتي

وأن ليس إهداء الخنا من شماليا

إذا ما امرؤ أهدي لميت تحية

فحياك رب العرش عني معاويا

وهون وجدي أنني ثم أقل له:

كذبت، وتم أبخل عليه بماليا^(٥٨)

وأورد ابن رشيقي في العمدة^(٥٩) أسماء طائفة من الشعراء الذين رغبوا - أنفة - عن هجاء غير الأكفاء: رغب الزبرقان بن بدر عن هجاء الحطيثة، واستعدى عليه عمر ابن الخطاب. ورغب سحيم بن وثيل عن الرد على الأحوص والأبيرد. ورغب الفرزدق عن ملاحاة الطرماح، وجريير عن بشار، وبشار عن حماد، وأبو تمام عن مغلد بن بكار، والمتنبي عن ابن حجاج، وابن هانئ عن شعراء أفريقية. ثم أورد أسماء طائفة ممن رغبوا عن الهجاء

كله، وأثنى عليهم، فقال: «ومنهم من لا يهجو كفواً ولا غيره، لما في الهجوم من سوء الأثر، وقبح السمعة، كالذي يحكى عن العجاج أنه قيل له: لم لا تهجو؟





العفة في الغزل:

ومن الملامح الخلقية في نقد الشعراء ما أثر عن بعضهم من أقوال تدعو إلى التزام العفة في الغزل، وعدم الخروج إلى الفحش والمجون، وما يחדش الحياء، أو يستحيا من ذكره.

يتمدح نصيب بعفته، ومرونا قوله: «والله ما قلت بيتاً قط تستحي الفتاة الحية من إنشاده في ستر أبيها...»^(٦٢).

وبلغ من عفته أنه لم يشيب بامرأة غير زوجته. نقل السيوطي أن نصيب بن رباح «كان عبداً أسود، وكان عفيفاً، وكان لا يشيب قط إلا بامرأته...»^(٦٣).

ودافع ابن المولى عن عفته، وأكد حرصه عليها، وأقسم إنه لم يذكر في شعره قط امرأة مسلم ولا معاهد بسوء، وكان يورّي عن المرأة بقوسه. روي أن الحسن ابن زيد دعا بابن المولى، فأغظ له وقال: أتشيب بحرم المسلمين، وتشد ذلك في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي الأسواق والمحافل ظاهراً؟ فحلف له بالطلاق إنه ما تعرض لمحرم قط، ولا شيب بامرأة مسلم ولا معاهد قط. قال: فمن ليلي هذه

التي تذكر في شعرك؟ فقال له: امرأتي طالق إن كانت إلا قوسي هذه، سميتها ليلي لأذكرها في شعري، فإن الشعر لا يحسن إلا بالتشبيب. فضحك الحسن ثم قال: إذا كانت القصة هذه فقل ما شئت...»^(٦٤).

وطوى النقد الذي وجهه بعض الشعراء إلى غزل عمر بن أبي ربيعة ملمحاً خلقياً، إذ أخذ عليه خروجه على قواعد الأدب

والعرف في حديثه عن المرأة، وامتھانه شأنها، حتى لتبدو صورتها فيما يسوقه عنها مبتذلة متقحمة، بدل أن تكون عفيفة حية شأن النساء الحرائر الشريفات.

قال كثير لعمر: «يا أخا قريش! والله لقد قلت فأحسنت في كثير من شعرك، ولكنك تخطئ الطريق. تشبب بها، ثم تدعها وتشبب بنفسك! أخبرني عن قولك:

قالت لترب لها تحدثها

لتفسد الطواف في عمر

قومي تصدي له ليبصرنا

ثم اغمز به يا أخت في خفر

قالت لها: غمزته فأبى

ثم اسبطرت تشد في أثري

أردت أن تتسبب بها فتسبب بنفسك، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك - أو قال منزلك - كنت قد أسأت صفتها. أهكذا يقال للمرأة؟ إنها توصف بالخفر، وأنها مطلوبة ممنعة. هلا قلت كما قال الأصوص:

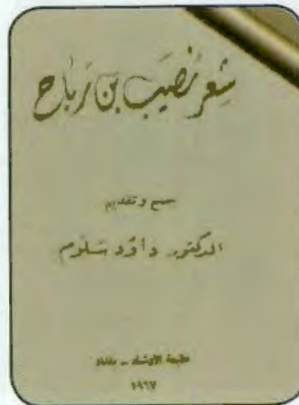
لقد منعت معروفها أم جعفر

وإني إلى معروفها لفقير^(٦٥)

ومن الواضح أن كثيراً لم يكتف بنقد شعر عمر لخروجه على قواعد الخلق العربي في الغزل، بل قارن بين إظهاره المرأة رخيصة سهلة وبين إظهارها ممنعة حصينة في قول الأصوص.

قال ابن رشيق: «قال بعضهم: - أظنه عبد الكريم - العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة المخاطبة، وهذا دليل كرم النخيزة في العرب وغيرتها على الحرم...»^(٦٦).

ومن قبيل هذا الملمح الخلقي في نقد شعر الغزل ما نسب إلى كثير كذلك من أنه أخذ على نصيب



قوله:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت

فواحزني من ذا يهيم بها بعدي؟!

إذ بدا وكأنه يعكس غيبة نخوة، أو قلة

تظن^(٦٧)■

غيرة على المرأة التي يحب، ولذلك قال له:

كأنك اغتتمت ألا يُفعل بها بعدك.. وفي رواية:

أيهمك من ينكحها بعدك والرجال أكثر مما

الهوامش:

- (١) انظر ما نشر في الأعداد: ٧١، ٧٣، ٨١.
- (٢) اختيار المتع في علم الشعر وعمله: ٨٨/١
- (٣) السابق: ١٣٢/١
- (٤) محاضرات الأدباء: ٤٦/١، السابق نفسه.
- (٥) إحكام صناعة الكلام: ٤٥
- (٦) العمد: ٢٨/١
- (٧) شرح ديوان الفرزدق: ٥١٦
- (٨) السابق: ٧٦٦
- (٩) السابق: ٤٠
- (١٠) شعر هدية: ١٤٦، شرح حماسة أبي تمام للشنتمري: ٣٨٥/١
- (١١) مختصر تاريخ دمشق: ٣١٩/٣
- (١٢) الأغاني: ٣٥٢/١
- (١٣) السابق: ٣٦٤/١
- (١٤) شعر هدية: ١٤٦، شرح حماسة أبي تمام للشنتمري: ٣٨٥/١
- (١٥) شرح ديوان الفرزدق: ٧٦٩
- (١٦) الدرة: نتوء في الجبل، وشق في الطريق أو ميل فيه، جمعه دروء.. والحوامي: عظام الحجارة وتقالها.
- (١٧) الأغاني: ٣٠٠/٨٠
- (١٨) السابق نفسه.
- (١٩) العمد: ١٧٢/٢
- (٢٠) المنتقى من أخبار الأصمعي: ٩٧
- (٢١) جمع الجواهر: ٥
- (٢٢) العمد: ١١٤/١
- (٢٣) أسرار البلاغة: ٢١٨، ٢١٩
- (٢٤) ديوان نابغة بني شيبان: ٩٦
- (٢٥) السابق: ٣
- (٢٦) شعر الأخوص: ١٨٣
- (٢٧) الكامل: ١٠٣٣، ٧٤٤، والعمد: ٩٩/١
- (٢٨) العمد: ٩٩/١
- (٢٩) الأغاني: ٣٦٧/١
- (٣٠) شرح ديوان الحماسة: ١٦٧/١
- (٣١) نثر الدر: ١٨٥/٢، العقد: ٢٧١/٥
- (٣٢) طبقات فحول الشعراء: ٦٥٨، الأغاني: ٢٥٥/٤
- (٣٣) الأغاني: ١٩٧/٢
- (٣٤) الموشح: ١٦٤، وانظر كتابنا نصوص النظرية النقدية: ١٣١
- (٣٥) الموشح: ٣٢١، نصوص النظرية النقدية: ١٣٠
- (٣٦) هنالك نصوص كثيرة عبرت عن دعوى الصدق الفني، أو الصدق التاريخي، أو الصدق في الوصف، ثم تتوقف عندها، وأشرنا فقط إلى ما دل على الصدق الخلقي، انظر مثلاً كتابنا نصوص النظرية النقدية عند العرب حتى القرن الثالث الهجري: ١٢٢، ١٣١، ١٣٧، ومواطن أخرى.
- (٣٧) الكامل: ٧٤٤، الأغاني: ٧٩/١٨
- (٣٨) العمد: ٨٢/١
- (٣٩) اختيار المتع في علم الشعر: ٢٩٧/١
- (٤٠) السابق نفسه.
- (٤١) العمد: ٨٣/١
- (٤٢) اختيار المتع: ٣٠١/١
- (٤٣) الأغاني: ٣١٢/٣
- (٤٤) الأغاني: ٧٤/١
- (٤٥) العمد: ٨٤/١
- (٤٦) الكامل للمبرد (ط: الدالي)، ٥٦٩
- (٤٧) شرح شواهد المغني: ٢٣/١، الموشح: ٢٢٨
- (٤٨) العمد: ٤٢/١
- (٤٩) اختيار المتع: ٣٠١/١
- (٥٠) وفيات الأعيان: ٥٦/١
- (٥١) الأغاني: ١٩٣/٢، العمد: ٩٧/١
- (٥٢) شرح أبيات المغني للبغداد: ٣٩٣/١، خزانة الأدب: ٣٢١/١
- (٥٣) الأغاني: ٣٥٢/١
- (٥٤) الأغاني: ٣٥٥-٣٥٦/١
- (٥٥) انظر في العمد: ١١٢/١، كلاماً حول هذه المسألة
- (٥٦) الأغاني: ٢٦/٢١
- (٥٧) الشعر والشعراء: ٥٩١، والعمد: ١١٢/١
- (٥٨) الكامل: ١٤٢٢، ٢٤٧
- (٥٩) العمد: ١٠٩-١١١/١
- (٦٠) العمد: ١١٢/١
- (٦١) السابق نفسه.
- (٦٢) الأغاني: ٣٦٤/١
- (٦٣) شرح شواهد المغني: ٣٠١/١
- (٦٤) الأغاني: ٢٩١/٣، وينسب ما هو شبيه بهذا الموقف إلى عبد الملك مع ابن المولى (الأغاني: ٣٠١/٣)
- (٦٥) الموشح: ٢٥٧، وينسب النقد كذلك إلى غير كثير، انظر العمد: ١٢٤/٢
- (٦٦) العمد: ١٢٤/٢
- (٦٧) الموشح: ٢٦٠